بقلم: أبو أنمار

... متى يطلع الفجر يا رفيق ؟

مرة اخرى اعود للحديث مع صاحبي الذي حدد طريقه باليسار في لقاء سابق وذلك من اجل مواصلة الحديث الذي بدأناه في ذلك اللقاء لاعتقادي بانه مهم ، ومن اجل تحديد موقفي بشكل واضح وصريح من هذه الموضوعة المهمة التي تطرق لها ، والتي وضعتني امام اسئلة العديد من الاشخاص الذين طلبوا رأيي في الحديث المذكور ، وفي الوقت نفسه الاستفهام عن بعض الجوانب الغامضة فيه ، ان هذه الاسباب هي التي دفعتني للقاء به مرة اخرى .. وقبل ان ابين له هدفي من اللقاء .. قال « ان نشر اي حوار في الصحف في قضايا سياسية ، بالتأكيد يصبح مجالا للجدل بين اطراف مؤيدة واخرى معارضة من قبل المهتمين بالسياسة، ولهذا توقعت ان سماعك لكلام من فلان او تعليق من علتان يدفعك لمواصلة الحديث »

فقلت له : « الان ارى الوقت مناسبا فما رايك ؟ » قال « ليكن » .

ـ « لكن قبل ان نبدأ اتمنى ان تكون هذه المرة اكثر وضوحا واكثر دقة في تحديد مبادىء اليسار والاسس والمبادىء التي يعمل وفقها اليسار من اجل انتصاره وتقدمه ونجاحه في اداء المهام الكبيرة » .

فرد علي قائلا : اعتبرت موضوعنا السابق منتهيا واعتقدت انني وضحت لك صورة اليسار الذي التزم به ، وبالتالي المبادىء التي يعمل وفقها تنظيميا وسياسيا وايديولوجيا ونضاليا ، ولهذا كان في نيتي عدم التطرق لها في هذه الجلسة ، بل نتحدث عن موضوع آخر ، ولكن لا باس من العودة ثانية اذا كان ذلك مفيدا ، فاليسار البروليتاري، لكي ينتصر على افكار الطبقات الرجعية والبرجوازية وتسلطها ، لا بد ان يكون منظما وفق المبادىء اللينينية ، ومتسلحا بالنظرية الثورية ومستوعبا للظروف الموضوعية وللواقع الذي يعمل فيه، والا فمن غير المعقول تحقيق اي انتصار على قوى امتدت جذورها وثقافتها في المجتمع مئات السنين وطبعت كل شيء بطابعها السياسي والاجتماعي والغيبي ، وهذه بديهية اصبحت من اهم علوم الثورة الاشتراكية بعد انتصارها وانتشارها في ثلث الكرة الارضية .

ـ « صحيح ما تقوله ، ولكن اردت المزيد لانني اعاني من فقر نظري كبير يفرض علي الاستعانة بك ، فهل تمانع ؟ وها انا ذا ارى في هذا اللقاء ومن خلال هذه الكلمات القصيرة شيئا جديدا لم تتطرق له في اللقاء السابق هو ضرورة بناء التنظيم البروليتاري وفق المبادىء اللينينية ، بل اعتبرتها من اهم شروط انتصار اليسار » ، فقاطعني : « شرط واحد فقط ، لا بل ان اللينينية هي صياغة لتطابق خلاق ما بين الاطر التنظيمية والالتزام الايديولوجي » .

ـ « لكن يا صاحبي ، ما رأيك بالذين يشكلون حلقات ماركسية ، ويعتبرونها البديل للحزب ؟ الا تشاركني الراي ، وانا المطلع على جزء بسيط من اللينينية ، بانهم يخالفون اهم مبادئها « المركزية الديمقراطية » ؟ »

فسارع صاحبي الى الاجابة بقوله : « ليست هذه المجموعة الجاهلة والمخبطة التي لا تعي نتائج عملها تركب مثل هذه الحماقات باسم اليسار فحسب بل هناك من وضع نفسه استاذا لمحاربة اللينينية ، وبالتالي محاربة الثورية ، ومع هذا يدعي قيادة الخط الاكثر ثورية والاكثر بسارية ورائد الفكر في الثورة الفلسطينية والعربية والعالمية « العفيف الاخضر » ، ولكن يا صاحبي لا الزمر الجاهلة التي تتارجح بين الغرب والشرق ستصمد في وجه رياح البروليتاريا ، ولا العفيف الاخضر ، بل ان الاخير لا يشكل شيئا في العملية الثورية العربية ، فمثله مثل حنون الذي يقول فيه المثل العربي « لا زاد حنون في الاسلام خردلة ، ولا النصارى لهم شغل بحنون » !

وان ممارسات امثال هؤلاء في صفوف اليسار ، صحيح انها تجلب الضرر لليسار وتبعثر قواه ، لكنها لا تستمر وستزول لانها ليست جزءا من اليسار ، ولانها فاقدة لشروط الالتزام بمسيرته الصعبة والقاسية والمنظمة ، وبالاضافة الى هؤلاء يا صاحبي هناك قسم منهم لا يعي حتى الموضوعات التي يطرحها ، كالتناقض العالمي ، والتحريفية ، والصراع الصيني السوفياتي .. الخ من القضايا التي تداولها اليسار الان .

ـ « لكن يا صاحبي اراك دخلت في موضوعات ما اتفقنا على الخوض فيها ، لانني لا اعي مضامينها وبالتالي غير قادر على ربطها باوضاعنا ، علما بانك في اللقاء السابق قلت لي بانك ستتحدث بموضوعية وبلغة بسيطة وسهلة بعيدة عن الكلمات الصعبة وذات المعاني المشعبة ، لهذا ارجو ان توضح لي مضامين هذه العبارات حتى لا اقع في خطأ من طبق وصية امه بمظهرها دون وعي ، فصار اضحوكة » .

وهنا فاطمني وطلب توضيح ما اقصده ، وبدو ان صاحبي شت فكره عن موضوع الحديث ، فاراد استغلال فترة رواية الحكاية حتى يعود بفكره الى الموضوع ثانية ، ولهذا استجبت لطلبه برواية الحكاية التي تقول : ان ارملة ارادت لولدها ان يبرز بين رجال القرية من خلال حديثه ومكان جلوسه في الدواوين ، فطلبت منه ان يجلس في مكان عال ويتكلم كلمات كبيرة ، وبدلا من ان ينفذ الوصية وفق المقصود اخذ كلامها بظاهره فقط ، فكانت النتائج عكسية ، وهذا ما ظهر من جوابه لوالدته في تنفيذه لوصيتها حين قال : « لقد جلست على الرف ، وهو اعلى مكان في الديوان ، لكنهم انزلوني وهددوا بطردي لانني اسأت للتقاليد المتعارف عليها في مثل هذه الجلسات ، وكذلك بالنسبة للكلمات الكبيرة ، فقد نفذت وصيتك حيث جئت بكلمات اكبر من كلماتهم بمئات المرات فبينما كانوا يتحدثون عن الطيور والقمح والكلاب ، رميتهم بكلماتي الكبيرة حسب وصيتك ، لكنهم استخفوا بي كثيرا ... وعندما استفسرت عن الكلمات الكبيرة قال انها « جاموسة ، بعير ، فيل » وهذه الكلمات كبيرة جدا فيما لو قيست بكلماتهم « الطيور ، القمح ، الكلاب » .

وانا .. عندما نصغي امام العناوين الكبيرة ، اخشى ان تتركها دون شرح او توضيح لموضوعاتها ومدلولاتها واوقات واماكن بحثها ، فاخطىء في استخدامها وتصبح الامور « جاموسة ، بعير ، فيل » او اضع التحريفية مثلا كصفة للشيوعية ، او اضع الصراع الصيني السوفياتي كسبب لعدم تحرير فلسطين ، فهل هذا الاستخدام صحيح ؟ ام « جاموسة ، بعير ، فيل » ؟

فرد علي صاحبي مبتسما : « ان التشبيهات الاخيرة فقط هي التي ساتوقف عندها ، اما ما اسميته بالعناوين الكبيرة فسوف نؤجله الى وقت آخر ، فالشيوعية مرحلة من مراحل تطور المجتمع الانساني تأتي بعد سلسلة تطوير في المجتمع هي : « المشاعية البدائية ، الرق ، الاقطاع ، الرأسمالية ، الاشتراكية ، الشيوعية » ، وبالتالي فهي موضوعة علمية، فكيف توصف بالتحريفية وهي مرحلة سيصل لها المجتمع الانساني » .

« يا صاحبي ! مع احترامي لوجهة نظرك فانني اشك في صحتها ، لان احد الاقطاب الكبار كتب ذات يوم على كتاب اهداني اياه ملاحظة يقيم فيها الكتاب ، يقوله « ان هذا الكتاب يخرج حركة الطبقة العاملة من المازق الذي وضعتها فيه الشيوعية التحريفية .. فهل هذا صحيح ؟ »

وما ان سمع صاحبي هذه الملاحظة حتى تحولت ابتسامته الخفيفة الى ضحكة عالية واكمل حديثه : « اما العنوان الاخر الذي ورد في حديثي كما تصورت ، يمكن ان يوضع في اي مكان او مع اي موضوعة من الموضوعات فالمسالة كبيرة تستوجب الدراسة من قبل كل القوى التي تريد لليسار الانتصار على اعدائه ، بل وشرح مفرداتها وفضاياها ، وانا يودي ان امر عليها في احدى لقاءاتنا القادمة ، اما الان فلا تسمح لنا الوقت ، لان الكلام فيها يحتاج الى وقت طويل ، بل وحتى موضوعة واحدة من عشرات الموضوعات التي تندرج عنوانها لا يمكن انجازه في جلسة واحدة » .

ـ « اذن يا صاحبي فان هذه العناوين علم كبير ، وليس كلمات يمكن وضعها في اي مكان كما تصورت انا ، ومن الافضل لي ولكل الناس الذين لا يزالون صغارا في هذا العلم ان لا يتكلموا لنفس المحذور الذي وقع فيه ابن الارملة ، والى ان شرح لي هذه الموضوعات فسوف اكف عن الحديث فيها » .

ثم قلت لصاحبي : ان طرحك للموضوعات التي تخص مسيرة اليسار في هذين اللقائين جعلني بشكل آلي اتحول الى مواقع اليسار ليس لانك اقنعتني بعصرية مبادىء اليسار وانتشارها ولكنني ايضا سائر في هذه الطرق لجملة عوامل منها طبقية واخرى تتعلق بالتزامي السياسي الذي حدد اتجاه مسيرته نحو اليسار ، وبالتالي اود ان اطرح لك رأيي بوضوح : انني اصبحت رفيقك في الطريق الذي تسير عليه ، على ضوء ما تطرحه تنظيميا ونضاليا وسياسيا وايديولوجيا ، على ان تسير في توضيح مبادىء اليسار اكثر من مرة حتى اعلمها ، وبالتالي امارسها لاتغلب على خصمي ونفيضي اليميني المنتشر في كل مكان » .

وما ان قلت الكلمة الاخيرة حتى قال : « في لقائنا السابق قلت لك ان كل شيء سائر ضد القديم ، وفي كل انحاء المعمورة، وفي كل زاوية من زواياها وان المسيرة مهما تعرضت وتتعرض للمصاعب والعراقيل ستصل الى شاطىء السلام ينهي معيقها الى الابد » .

ومع هذا فقد تساءلت عن اسباب تاخر انتصار اليسار في اللقاء السابق ، الا ان هذا لا يعني بقاء الاوضاع كما هي الى الابد بل ان حركة التاريخ سائرة الى الامام ، الا انني يا رفيق اعجل رؤية وجه الارض متغيرا ، مغسولا من كل قديم ..

فيقاطعني ويقول : « ان كل بغير لا يأتي الا نتاج عمل القوانين الديالكتيكية » .

نعم انا مؤمن بذلك ، الا انني اريد طلوع الفجر ، ولا بد ان نعمل جميعا من اجل طلوع الفجر في جميع انحاء الارض ، لكن ساظل اسائل ، واعمل بكل امكاناتي من اجل طلوع الفجر يا رفيق !

لحظة !

« .. انه لمن الخطأ البين افساح مجال العمل امام الصياحين ومنمقي الجمل ، الذين يؤخذون ويفتتنون بالثورية « البراقة » ، ولكنهم عاجزون عن القيام بعمل ثوري دائب عاقل موزون يحسب الحساب لاصعب الاطوار الانتقالية »

لينين

صادر عن دار الطليعة

الجبهة الوطنية المتحدة

بقلم

جورج ديمتروف